كلية البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة
المجلة العلمية

الفكر الصوفي وأثره على المجتمع المسلم

إعداد

أ.د / داود لطفي حافظ

أستاذ الأدب والنقد المتفرغ

في كلية اللغة العربية بأسيوط – جامعة الأزهر

(العدد الثالث)

١٤٤٤هـ / ٢٠٢٢م

" الفكر الصوفي وأثره على المجتمع المسلم "

داود لطفي حافظ

أستاذ الأدب والنقد المتفرغ ، قسم الأدب والنقد ، كلية اللغة العربية ، أسيوط ، جامعة الأزهر ، جمهورية مصر العربية ٠

البريد الإلكتروني : Dawdlotfyhafz.19@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف البحث إلى التعرف على مفهوم التصوف ونشأته ، وصفات الصوفي ، ومدى الحاجة إلى التصوف ، وغرائب الصوفية ، وشطحاتهم ، وموقفنا من التصوف ، وما التصوف المرفوض ، وما التصوف المحمود ، ووجه الحاجة إلى التصوف بالمعنى المشروع ٠

وقد اشتمل البحث على مفهوم التصوف ، واختلاف الآراء حول أصل الكلمة ، وأصل كلمة الصوفية ، والشطحات ، وتفسير القرآن الكريم تفسيرًا باطنيا ، وصفات الصوفي ، وكرامات الأولياء وموقفنا من الطرق الصوفية ٠

الكلمات المفتاحية : الفكر – الصوفي – المجتمع – المسلم – الشطحات – الأثر

Sufi thought and its impact on the Muslim community

Researcher name: Daoud Lotfi Hafez
Emeritus Professor of Literature and Criticism, Department of Literature and Criticism, Faculty of Arabic Language, Assiut, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt .
Email: Dawdlotfyhafz.19@azhar.edu.eg

Summary: **The research aims to identify the concept of Sufism and its origins, the characteristics of the Sufi, the extent of the need for Sufism, the oddities of Sufism, their absurdities, our attitude towards Sufism, what is rejected Sufism, what is praiseworthy Sufism, and the need for Sufism in the legitimate sense.**

The research included the concept of Sufism, the different opinions about the origin of the word, the origin of the word Sufism, the esoteric interpretation of the Holy Qur'an, the qualities of the Sufi, the dignities of the saints, and our position on the Sufi orders.

key words : Thought - Sufi - Society - MuslimScrapes – impact .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونؤمن به ونتوكل عليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدا ٠

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنفع قائلها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ٠

وأشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – القائل في دعائه : اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك ، وحب ما يقربني إلى حبك ، واجعل حبك إلي أحب من الماء البارد ٠

وبعد ،،،

قال الله عز وجل لحبيبه ومصطفاه :﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ الحجر (٩٧ – ٩٩) ٠

فغذا ضاق صدرك ايها المسلم بما يقول الناس فيك فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ٠

ونذكر ما قاله بعض الصالحين ؛ " متى توجه الناس بالذم إليك فارجع إلى علم الله فيك ، فإن كان لا يقنعك علمه ، فعدم قناعتك بعلم الله أعظم من وجود الأذى منهم "٠

وهل أنت راض عما بينك وبين ربك ، وبينك وبين نفسك ، وهل ترضى حياتك لمماتك وهل ترضى نفسك لربك ؟ إذًا فلا صواب لك أن تعتب على الناس فيقينًا أنت لا ترضى نفسك للناس ٠

اللهم اغننا برحمتك ، اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أَثنيتُ على نفسك ، اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام ، واكنفنا بركنك الذي لا يرام وارحمنا بقدرتك علينا ، أنت ثقتُنا ورجاؤنا ٠

فكم من نعمة أنعمت بها علينا قلّ لك شكرُنا ، وكم من بليّة اختبرتنا بها قلّ لك عندها صبرُنا ، فيا من قلّ عند نعمته شكرُنا فلم يحرمنا ، ويا من قلّ عند ابتلائه صبرُنا فلم يخذُلنا ، ويا من رآنا على المعاصي فلم يفضحُنا ، نسألك اللهم أن تصلي على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وآله وأن تعيننا على ديننا بدنيانا ، وعلى آخرتنا بالتقوى ، يا من لا تضره الذنوب ، ولا تنقصه المغفرة ، هب لنا ما لا ينقصك ، واغفر لنا ما لا يَضْرُك ٠

يا إلهنا وسيدنا وخالقنا ورازقنا نسألك فرجًا قريبًا ، وصبرًا جميلاً ، ونسألك العافية من كل بليّة ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك دوام العافية ، ونسألك الغنى عن الناس ٠

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

أما بعد ٠٠٠

فإذا ذكر التصوف تراءت للعين صورة شائهة لرجال يتبعون طرقًا شتى ، وتنتظم في المناسبات الدينية مواكب لها بُغام منكر ، تخدم السلطات الغاشمة ، وتحيي البدع والخرافات ، وقلما ارتفعت لها راية في ميدان جهاد ٠

والحق أن هؤلاء الغوغاء لا علاقة لهم بالتصوف ، ولا يعرفون منه قليلاً ولا كثيرا ٠

التصوف – سواء كانت الكلمة عربية أو مترجمة – يعني حقائق أخرى جديرة بالدرس والتمحيص ٠

والتراث الصوفي يتضمن أحيانًا قضايا في ذروة الشرف والسناء كما يتضمن أحيانًا أخرى شطحات لا وزن لها ، بل ينبغي اطّراحُها والنأيُ عنها[١] ٠

وسنحاول في هذه الإطلالة أن نتعرف على مفهوم التصوف ونشأته وصفات الصوفي ومدى حاجتنا إلى التصوف ، وغرائب الصوفية وشطحاتهم ، وموقفنا من التصوّف ٠

وقد يقول قائل من أهل السنة بعد نهاية هذه الإطلالة لقد تصوّف المُحاضر ؛ وآخر من المتصوفة سيقول : إنه شارد عن الطريق ٠٠٠

ولكن حسبي أنني اجتهدت لبيان الحق والصواب في حدود فهمي لكتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعمل الصحابة والسلف الصالح بخصوص " الفكر الصوفي وأثره على المجتمع " ٠

فمن المؤسف أنك حين تنظر في دنيا الناس تجد صنفين من الناس :

أولهما : " صنف تلمس في قلبه عاطفة حارة ، ورغبة في الله عميقة ، وحبًا لرسوله – صلى الله عليه وسلم – باديًا ، ومع ذلك تجده ضعيف البصر

(١) محمد الغزالي : مائة سؤال عن الإسلام ص ٢٤ دار ثابت ٠

بأحكام الكتاب والسنة ، يعلم منها قليلاً ، ويجهل منها كثيرً ، ويغريه بالتعصب للقليل الذي يعلمه أنه يأنس من نفسه صدق الوجهة وقوة محبته لله ورسوله ربما افتقدها في غيره فلم يشعر بها ٠

وثانيهما : صنف تلمس في عقله ذكاء ، وفي علمه سعة ، وفي قوله بلاغة ، يعرف الصواب في أغلب الأحكام الشرعية ، ويؤدي العبادات المطلوبة منه أداءُ لا بأس به ، ولكنه يندد بأغلاطه ، ولكنه بارد الأنفاس ، بادي الجفوة غليظ القلب يكاد يتمنى العثار لغيره ، كي يندد بإغلاظه ، ويستعلي هو بما أوتي من إدراك للحق ، وبصر بمواضعه من كتاب وسنة ٠

ويغيظك من الصنف الأول أصحاب العاطفة الحارة ما يغلب عليهم من جهل وما يشين غيرتهم من عكوف على الخرافات ، وعجز عن استيعاب الأحكام التي استعلنت في دين الله أدلتها ، واكتفاؤهم بحب سلبي طائش ٠

ويغيظك من الصنف الثاني استكبارهم لما هدوا إليه من صواب في بعض الأحكام العقدية والفقهية ، واستهانتهم بآفات القلوب وفراغهم من حرارة الإقبال على الله والحنو على عباده ٠

وقديمًا شكا الإمام ابن القيم من أن بعض المدرسين والمفتين والقضاة غلب عليهم جفاف الطبع ، وقسوة القلب ، وإن كانت براعتهم النظرية في ميدان العلم لا مطعن فيها ٠

والمسلم الكامل رجل نير القلب ، نير الذهن والقلب معًا ، حاد البصر والبصيرة جميعًا تتعانق فكرته وعاطفته في معاملته لله ، ومعاملته للناس ، فلا تدري أيهما أسبق ؟ صدق أدبه أم حسن معرفته ، ولا تدري أيهما أروع ؟ خصوبة نفسه الجياشة أم فطانة عقله اللماح ؟ ٠

وهذه الصفات مشتقة من طبيعة الإسلام نفسه ٠

فالإسلام دين يبني عقائده على اسس فكرية تشبه البديهيات في علوم الرياضة ٠

وإلى جانب هذا فالإسلام دين عبادة تقوم على سلامة القلب وشحنه بالإخلاص والمحبة والأدب ، وتجريده من الهوى والآثرة [الأنانية وحب الذات] والغش ٠

وسرة النبي – صلى الله عليه وسلم – نموذج لهذا الازدواج بين يقظة القلب واللب والتقائهما في سلوك واحد(١) ٠

" فالدين عقل وعاطفة ، وعلم وأدب ، ونظر صائب وبصيرة نيرة ٠

ومن سوء حظ الثقافة الإسلامية فقهاء لا دراية لهم بعلم القلوب ونهج التربية ، ومتصوفون صفر الأيدي من قوانين الشريعة وضوابطها !

لكنّ الراسخون في العلم سالمون من هذه الآفات ، زمن يقرأ لابن القيم وابن تيميه والغزالي وابن الجوزي والرازي وغيرهم يرى رجالاً على درجة رفيعة من جيشان المشاعر والاستبصار العقلي(٢) ٠

مفهوم التصوف :

اللغة تقول : تصوف فلان صار من الصوفية ٠

التصوف : طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح ٠

علم التصوف : مجموعة المبادئ التي يعتقدها المتصوفة والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم ٠

الصوفية : جماعة المتصوفين ٠

---

(١) راجع محمد الغزالي : الجانب العاطفي في الإسلام ١١ وما بعدها بتصرف ٠

(٢) راجع محمد الغزالي : مائة سؤال عن الإسلام ص ٢٦ ٠

الصوفي : من يتبع طريقة التصوف .

الصوفي : العارف بالتصوف[١] .

والصوفي : كلمة مولدة[٢] (ليست أصيلة في العربية) .

واختلفت الآراء حول أصل الكلمة ولم ينته الرأي فيه إلى نتيجة حاسمة بعد .

ومن أقدم الآراء وأطرفها ما ذكره البيروني من أن هذا اللفظ تحريف لكلمة "سوف" اليونانية التي تعني الحكمة ، وهذا الرأي على طرافته لا يستقيم إذ إن التسمية بالصوفي كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية فهناك من يرى أن الكلمة عرفت في العهد الجاهلي[٣] .

وهناك من يقول إنه من الصوف ، وتصوف إذا لبس الصوف ، كما يقال : تقمص إذا لبس القميص ، ولكن صاحب الرسالة القشيرية يرد هذا الرأي بقوله : " ولكن القوم لم يختصموا بلبس الصوف " .

وهناك من قال : إنهم منسوبون إلى صُفَة مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولكنه النسبة اللغوية لا تجئ على نحو الصوفي .

وهناك من قال : إنه من الصفاء ، وهو بعيد في مقتضى اللغة .

وهناك من قال : إنه مشتق من الصَف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم.

من حيث المحاضرة : المعنى صحيح ، لكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف .

والأظهر في هذا اللفظ إنه كاللقب الذي غلب على هذه الطائفة .

---

(١) راجع : المعجم الوجيز ص ٣٧٤ ، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم .

(٢) المصباح المنير ١/ ٣٥٢ .

(٣) راجع د/ عبد الحليم محمود : المنقذ من الضلال للغزالي وأبحاث أخرى ، ص ٢١٣ وما بعدها .

وقد انفرد الشيخ عبد الواحد يحيى[١] برأي مفاده : إنها تسمية رمزية وإذا لاحظنا القيمة العددية لحروف كلمة " صوفي " نجد أنها تماثل القيمة العددية لحروف "الحكيم الإلهي" فيكون الصوفي الحقيقي هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه :" العارف بالله "[٢] .

وأظهر الآراء أنها تنتسب إلى الصوف ، وإن صحت هذه التسمية فإنها كلمة موفقة كل التوفيق ، إذ إنها تمت بصلة حرفية نغمية جرسية إلى كثير من الكلمات التي تدل على معانٍ وثيقة الصلة بالتصوف ، "كالصفاء" ، وصلته بالتصوف ظاهرة ، و "الصف" الذي يعني الصف الأول في الجهاد للعدو والنفس ، و "الصفة" وهى صفة مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – التي كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم لله وللجهاد ، "والصفة" أي الصفة الجميلة ، و "سوفيا" التي تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص .

وكان من التوفيق أيضًا ؛ هذا الغموض نفسه في أصل الكلمة فما من شك في أن الاختلاف في أصلها يبين الكثير من معاني التصوف ومظاهره"[٣] .

وهناك اتجاهات تنحو بالتصوف إلى الأخلاق ، وأخرى تنحو به نحو الزهد وغيرها تنحو به نحو العبادة ، والحقيقة أن التصوف وإن كان متضمنًا لكل ذلك فإنه شئ آخر ، كما أنه ليس كرامات ولا خوارق للعادات ، إنه شيء لا يتجاوز

---

(١) هو الحكيم الصوفي "ريني هجينو" أسلم وسمى نفسه عبد الواحد يحيى ، له مؤلفات كثيرة منها:" أزمة العالم الحديث" و "الشرق والغرب" وهو من الشخصيات التي أخذت مكانها في التاريخ ، يضعه المسلمون بجوار الإمام الغزالي وأمثاله ، ويضعه غير المسلمين بجوار أفلوطين صاحب الأفلاطونية الحديثة وأمثاله ، راجع د/ عبد الحليم محمود : المقذ من الضلال ص ٢٥١ .

(٢) د/ عبد الحليم محمود : المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي ص ٢١٧ .

(٣) د/ عبد الحليم محمود : المنقذ من الضلال ص ٢٢٢ .

كل ذلك .

وتكاد تعاريف التصوف تبلغ الألف تعريف كل منها يعبر عن زاوية من زوايا التصوف تتصل بالوسيلة أو بالغاية ، وعلى ذلك فإنها لا تعبر عن الحقيقة الكاملة ، أما ما يعبر عن الحقيقة الكاملة في راي د/ عبد الحليم محمود ، فهو تعريف "أبو بكر الكتاني المتوفى ٣٢٢ه"الذي يقول إن التصوف صفاء ومشاهدة ، وهو على وجازته جمع بين الوسيلة والغاية ، أما الوسيلة فهى "الصفاء" وأما الغاية فهى "المشاهدة"[١] .

ومهما يكن من أمر في اختلاف التعاريف فقد اختلف العلماء في الاسم وهو "التصوف" فقد أسماه بعضهم "علم القلوب" وأسماه آخرون "علم الإحسان" بمقاميه من مشاهدة ومراقبة، وأسماه جماعة من علماء النفس "علم البواعث على الأعمال"

وأسماه الشيخ محمد الغزالي : الجانب العاطفي من الإسلام .

وأسماه الأستاذ : سعيد حوى :" تربيتنا الروحية" أو :تصوف الحركة الإسلامية" .

ولا يهمنا اختلاف الأسماء إذا اتفقنا على حقيقة المسمى وقديمًا قيل : لا مشاحة في الاصطلاح .

المهم أن نفكر ونعمل داخل سياج محكم من توجيهات الوحي وسنن صاحب الرسالة ، ومنهاج سلفنا الصالح[٢] .

أي الكتاب والسنة وعمل الصحابة .

---

(١) راجع د/ عبد الحليم محمود : المنقذ من الضلال ص ٢٣٥ .

(٢) راجع بتصرف : محمد الغزالي : الجانب العاطفي من الإسلام ص٥ ، دار الدعوة ، الطبعة الخامسة .

فتعالوا نتعرف على اصل التصوف وكيف وصل إلينا ..

أهل الصوفية :

تحدث القشيري في رسالته عن أصل هذه الجماعة فقال :

إن المسلمين بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يَتَّسَمِّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم ، سوى صحبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، إذ لا فضيلة فوقها ، فقيل لهم ؛ الصحابة ، ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمى من صحب الصحابة بالتابعين ، ورأو ذلك أشرف سمة ، أي علامة ، ثم قيل لمن بعدهم أتباع التابعين ، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب ، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد ، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادًا ، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوراق الغفلة – باسم التصوف – واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الكبار قبل المائتين من الهجرة .

يقول بعض المؤرخين : إن حذيفة بن اليمان الصحابي له كلام في الوجدانيات أخذها عنه الحسن البصري المتوفى ١١٠ه وعنه أخذ المتصوفون .

ولما اتسعت رقعة الإسلام ودخلت بعض التيارات المنحرفة في القرن الثاني الهجري زاد الترف فظهر التصوف رد فعل للانحراف ، وبدأ هادئًا ثم اشتد في أواخر القرن الثاني الهجري ، وبلغ الذروة في القرن السابع لوجود فتن التتار والصليبيين ولفساد الأندلس ، فظهر في المغرب واضحًا في شكل دولة المرابطين وفي المشرق بني صلاح الدين الأيوبي "الخانقاه" للفقراء ، وهو أول من بناها كما يقول المقريزي في خططه ، وفي تلك الفترة اتجه الأدب إلى التصوف ، فظهرت المدائح النبوية وغيرها ، ثم ظهرت غرائب في حياة المتصوفين[1] .

(١) بيان للناس من الأزهر الشريف ٣٧/٢ وما بعدها .

من غرائب الصوفية :

١ـ مراتب أهل الغيب ٠

نقل الشيخ محمد الغزالي في كتابه : مائة سؤال عن الإسلام ص ٤٥٨ كلامًا قرأه في مجلة المسلم لإمام من أئمة التصوف المعاصر تحت عنوان "مراتب أهل الغيب"٠٠

وذكر أنهم تسعة مراتب :

١) الغوث الأعظم ٠

٢) ثم الإمامان ٠

٣) ثم الأوتاد ٠

٤) ثم الأبدال السبعة ٠

٥) ثم النقباء الاثنا عشر ٠

٦) ثم النجباء السبعون ٠

٧) ثم الأخيار ٠

٨) ثم المغردون ٠

٩) ثم الصالحون ٠

وقد هدد الكتاب من ينكرها بأنه " عند أهل الحق معوق عن السلوك مؤخر عن الوصول ، معرض للسلب والاستدراج " ٠

بل قال إن إنكارها "تمهيد لما قد يكون به سوء الخاتمة والعياذ بالله ، لأنه حكم على مجهول لا يقين عليه لغير العالم به فيسلم له "٠

ثم يقول الشيخ الغزالي :" وإنني أعجب : لماذا يريد بعض إخواننا أن يقرن التصوف بهذه المبتدعات والغرائب المذكورة ؟!"٠

إن التصوف عند رجاله الأوائل طريق تربية نفسية صالحة وتدريب على مراقبة الله ومشاهدته فيما نفعل ونترك ، ويمكن تسميته علم الأخلاق الدينية ،

لأن تراثه المنتقى لا يخرج عن هذا الإطار ٠

٢ـ سقوط التكاليف الشرعية :

تحت عنوان : التصوف والتحلل من الشريعة الإسلامية[١] ٠

تحدث د/ عبد الحليم محمود عن أدعياء التصوف الذين يقولون : إن الشخص الذي وصل إلى مرتبة معينة من المعرفة تسقط عنه التكاليف الشرعية ، فليس عليه صلاة ولا زكاة ولا حج ٠٠ ولا غير ذلك مما يلتزمه المسلمون !

ويقول إن مصدر هذه المعرفة هو تحضير الأرواح التي يستحضرونها فتلبس – فيما يزعمون – جسم الوسيط وتتقمصه ، وتكشف لهم عن الغيب من أزله إلى أبده ، ومن بدايته إلى نهايته ، ومن مشرقه إلى مغربه ٠

ويقول : بلغ الأمر بأحدهم أن يزعم أنه رسول ثم إنه عيسى عليه السلام ، ثم محمدًا – صلى الله عليه وسلم – ثم تخلص من البشرية جملة فزعم أن الألوهية حلت فيه ٠

ويختم الدكتور الحديث بقوله : وصدق الله تعالى إذ يقول فيه ، وفي أمثاله ممن يتصلون بالجن ، وينحرفون سواء السبيل :"﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ الجن /٦ ٠

ثم يذكر آراء أئمة الصوفية قديمًا وحديثًا في هذه القضية وليرجع إليها من شاء [٢] ٠

---

(١) ص ٢٨٢ – ٢٨٩ من كتاب : المنقذ من الضلال ٠

(٢) نفس المرجع السابق ٠

٣- رؤية الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقظة [١] :

ذكر عمر بن سعيد الفوتي في كتابه الرياح :

" أن الأولياء يرون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقظة ، وأنه يحضر كل مجلس أو مكان أراد بجسده وروحه ، وأنه يتصرف ويسير في أقطار الأرض وفي الملكوت ، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شئ ، وأنه مغيب عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم فإذا أراد الله لعبد أن يراه رفع عنه الحجاب فيراه على هيئته التي كان عليها " ٠٠

ويستدلون على ذلك بالحديث الذي رواه البخاري ومسلم :

" من رآني في المنام فسيراني في اليقظة " ولا يتمثل الشيطان بي " والحديث يحمل تأويلات عدة ارجع إليها إن شئت "[٢] ٠

٤- تفسير القرآن الكريم تفسيراً باطلاً ٠

نشرت مجلة العشيرة المحمدية حلقات متصلة لهذا اللون من التفسير وهذا نموذج منه لسورة النصر :

" إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ " ، أي المدد الملكوتي ، والتأييد القدسي بجليات الأسماء والصفات ٠

" وَالْفَتْحُ " المطلق الذي لا فتح وراءه وهو فتح باب الحضرة الأحدية ولكشف الذاتي بعد الفتح المبين في مقام الروح بالمشاهدة ٠

" وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ " أي التوحيد ، والسلوك على الصراط المستقيم بتأثير نورك فيهم عند فراغك من تكميل نفسك ٠

---

(١) راجع عبد الرؤوف محمد عثمان : محبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – بين الاتباع والابتداع ص ٢٤٥ وما بعدها ٠

(٢) المرجع السابق ٠

" أَفْوَاجًا " أي مجتمعين كأنهم نفس واحدة ٠

" فَسَبِّحْ " نزه ذاتك من الاحتجاب بمقام القلب إلى الترقي في حق اليقين ٠

" بِحَمْدِ رَبِّكَ " أي حامدا له بإظهار كمالاته وأوصافه التامة عند التجريد بالحمد العقلي ٠

" وَاسْتَغْفِرْهُ " واطلب ستر ذاتك بذاته ، كما كان حال الفناء قبل الرجوع إلى الخلق أبدًا ٠

" إِنَّهُ كَانَ توَّابا " قابلا لرجوع من رجع إليه بإفنائه بنوره ولما كمل الدين واستقرت دعوته طولب الرسول بذلك أي بالرجوع إلى مقام اليقين الذي يستمر إلى ما بعد الموت ٠

التصوف المرفوض :

١ـ التصوف الفلسفي :

" التصوف الفلسفي في تاريخنا العلمي لون من الغزو الثقافي الماكر قصد به لَفْتُنَا عن عقائدنا ومناهجنا وأهدافنا ، ويجب أن ينتبه أولو العلم له ، وأن يحروا أمتنا من بقاياه ودسائسه فإن أعداء الإسلام ينشدون من إشاعته خلق أمة لا انتماء لها ولا وجهة ؛ أمة كسول واهية الصلاة بكتاب ربها وسنة نبيها ؛ لا تحسن إلا تأويل الآيات والأحاديث وتحريف الكلم عن مواضعه والاسترسال مع الأحلام والخيالات ٠٠٠[١] ٠

وهذا التصوف الفلسفي نقل عن الهنود واليونان الأقدمين عقائد الحلول والاتحاد ، ووحدة الوجود ، مشيًا وراء تهويمات عاطفية بعيدة عن هدايات الإسلام ، ولا يمكن ربطها بالوحي الصحيح ٠

(١) محمد الغزالي : الجانب العاطفي من الإسلام ص ٥ ٠

كما أن هناك تصوفًا ضاهى الرهبانية البوذية والنصرانية وأعلن حربًا على الجسد لا عقل فيها ولا جدوى منها ، أو استدار للحياة الدنيا فلم ينشغل بها ولم يكدح فيها ، وكوّن أجيالاً من القاعدين والمنسحبين في ميادين الحياة شَقِيَ بها الإسلام دهرًا ، ولم ينجحوا لا في كسب الدنيا ولا في كسب الآخرة .

إننا نرفض هذا اللون من التصوف ونؤكد أن الإسلام يستنكره ، وأظن أن بداهات الفطرة والاتقاء الإنساني تعترضه[1] .

٢ـ التصوف المحمود :

" هناك تصوف نبت في أكناف الإيمان والإسلام والإحسان ونما على أغذية جيدة من العلم والعمل ، واستطاع أن يلوَن المشاعر الإنسانية بصدق العبودية ودفعها إلى التفاني في مرضاة الله والحس الدقيق بوجوده وشهوده ، وجعل أصحابه يسعدون بمشاعرهم الباطنة ، وإن كانت أحوالهم نكدة فيما يرى الناس حتى يقول قائلهم : حبسي خلوه ، ونفيي سياحة ، وقتلي شهادة " .

هذا التصوف يحول المعرفة النظرية المجردة إلى عاطفة قلبية مشبوبة ، فالتكاليف تُؤَدِى برضا واستحلاء ، لا بتعب ومعانة ، والمعاصي تُتْرَكُ باستغناء واستعلاء ، كما قال يوسف عندما تعرض لإغراء الملكة وصويحباتها ، وفُرِشَ له طريق الغواية بالأزهار :" قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ" يوسف / ٣٣

وانتقال العلم من تصور ذهني جاف إلى شعور قلبي رقيق عطاء إلهي جليل القدر ، وقد أشار إليه القرآن وهو يذكر امتنان الله على أصحاب رسوله – صلى الله عليه وسلم – :" وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ

(١) محمد الغزالي : مائة سؤال عن الإسلام / ص ٢٤ .

وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ الحجرات ٧،٨ ٠

كما اشار إليه النبي – صلى الله عليه وسلم – في قوله :

" ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبحمد – صلى الله عليه وسلم – نبيًا ورسولا "٠

وقوله – صلى الله عليه وسلم – ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذ في النار " ٠

فذكرت الآية والحديثان أن الله حبب الإيمان وزينه في قلوب المؤمنين ، وجعل له طعمًا يصل إليه المؤمن بالرضا بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد – صلى الله عليه وسلم – نبيًا ورسولا ٠٠ والرضا يستلزم الطاعة ٠

وجعل للإيمان حلاوة وهى درجة فوق درجة الطعم يصل إليها المؤمن بالحب لله والرسول أكثر مما سواهما من حبه لنفسه وماله وأهله وولده والحب لإخوانه لا لشئ إلا لله وفي اللهِ ٠

والكره للكفر ككراهة القذف في النار ٠

وهذا الحب لله ورسوله وللمؤمنين ، والكراهة للكفر والفسوق والعصيان عطاء إلهي جليل القدسية [فضلًا من الله ونعمة] نسأل الله أن يمنحنا الحب له ولرسوله والمؤمنين ، وأن يرزقنا الكراهة للكفر والفسوق والعصيان حتى نكون من الراشدين٠

الإيجابيات

حاجتنا إلى التصوف "بالمعنى المشروع " التصوف الإسلامي

- كلما ازدهرت الحضارة ، وتألقت المدنية وازداد الرخاء المادي في المجتمعات أصاب الناس سعار الذهب والفضة ، وأصبحت حياتهم مقومة بموازين مادية خالصة ، وكلما تكدست الأموال في أيد وحرمت منها أياد كثيرة ٠
- وكلما اشتدت الأهوال على الناس ، فهذا تاجر فشل في تجارته ، وذلك صاحب مصنع أتت النار على مصنعه ، وتلك طائرة تهوي إلى ألأرض وتترك ركابها كالهشيم تذروه الرياح ومن خلفهم أزواج وأمهات وأبناء ٠٠٠ الخ ٠
- وفي كل محنة من محن الإنسان لا يكون في يده شئ إلا اللجوء إلى الله ، والإيمان به واليقين فيه ٠
- وفي تيارات هذه المحن لا يكون هناك علاج للإنسان إلا العلاج الروحي وحده ، المستمد من كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وعمل الصحابة رضوان الله عليهم ٠
- وفي وسط الدعوات والمذاهب المادية والإلحادية الصرفة التي تهب علينا من الغرب في كل وقت ، لا يكون لنا إلا أن نلوذ بالحياة الروحية ونقوي دعائمها ونعتصم بها وندعو إليها[١] ٠
- إن الطرق الصوفية أشبه بالمدارس التربوية ، التي تضم إلى العلم والثقافة ممارسات عملية تطبيقية ، فهى تنطلق في نشاطها على ضوء

(١) راجع بتصرف د/ محمد عبد المنعم خفاجي : دراسات في التصوف الإسلامي ٧/١ ، مكتبة القاهرة – دار الطباعة المحمدية بالأزهر ٠

الفكر والوجدان ، لأن علاقة المريدين " التلاميذ والطلاب " بشيخهم علاقة حب واحترام لا نجدها في كثير من المؤسسات التربوية الأخرى ، وبهذا الرباط يمكن توجيههم بيسر وسهولة ، وبذلك نُحَوّل هذه الطاقات الهائلة من الشباب والرجال والنساء إلى الإنتاج المقمر في كل مجال ٠

- وقد كان للمتصوفين الأوائل مواقف صامدة على مدى التاريخ في مقاومة الاستعمار ، وفي إقامة المنشآت الدينية[١] وفي عمارة الحياة ٠٠

صفات الصوفي :

يقول د/ عبد الحليم محمود في مقدمة كتاب المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الإمام الغزالي[٢] :

" ومتابعة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – واقتداء به ، سار الصوفية على الدرب ، يقول صاحب عوارف العوارف : " والصوفي يضع الأشياء مواضعها ، ويدير الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه ٠٠ ويستر ما ينبغي أن يستر ، ويظهر ما ينبغي أن يظهر ٠٠ ويأتي بالأمور في مواضعها ، بحضور عقل وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص"٠

ويواصل د/ عبد الحليم حديثه قائلاً :

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالتأسي بالرسول – صلى الله عليه وسلم – فيما دق من الأمور ، وما وضح منها ٠٠ وفي اليسير من أعمالهم ، والعظيم منها.. ومن أمثلة ذلك :

(١) بيان للناس من الأزهر الشريف ٢/٣٩ ٠

(٢) ص ٧ وما بعدها ٠

١- في التزام الشريعة :

يقول صاحب كتاب التبصير في الدين الإمام الفقيه الأصولي المفسر الأسفراييني – أحد أئمة أهل السنة – موضحًا صفات أهل السنة فيذكر أن من ادس ما امتازوا به :" علم التصوف والإشارات ، ما لهم فيها من الدقائق والحقائق لم يكن قط لأحد من أهل البدعة فيه حظ ٠٠ بل كانوا محرومين مما فيه من الحلاوة " ٠

ويقول أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه :

" من دعا إلى الله تعالى ، بغير ما دعا به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهو بدعي " ، ويقول :" إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس في الجماعة فلا تعبأ به " ٠

ومن أجمل كلماته في هذا قوله :

" ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ، ومتابعة السنة فمن أعطيهما ، وجعل يشتاق إلى غيرهما ، فهو عبد مفترٍ كذاب ، أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب ، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا ، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا " وهذا أبو زيد البسطامي يقول :

" لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة"٠

وهذا الإمام الجنيد يقول :

" الطرق مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول – صلى الله عليه وسلم – واتبع سنته ، ولزم طريقته " ٠

وقال أيضًا :

" من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يُقتَدى به في هذا الأمر .. لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة " .

والإمام الغزالي يقول : إن المحققين قالوا :

" لو رأيت إنسانًا يطير في الهواء ، ويمشي على الماء ، وهو يتعاطى أمرًا يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان " .

الإنسان جسد وروح ، الجسد مخلوق من طين ، قال الله تعالى :﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون / ١٢ – ١٤ .

والروح سر من أسرار الله ، قال تعالى :" ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ الحجر / ٢٨ – ٢٩ .

وقال تعالى :" ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ السجدة / ٧ – ٩ .

والروح من أمر الله كما قال تعالى :" ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء / ٨٥ .

ولكل من الجسد والروح عذاؤه ، فالجسم المخلوق من الطين عذاؤه من الطين ، وكل ما يدخل جوف الإنسان من طعام مرده إلى الماء والتراب الذي هو الطين .

وإذا أهتم المرء بغذاء الجسد فقط وأهمل غذاء الروح صار إنساناً يشترك مع الحيوان في بناء الجسم فقط .

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته

أترجو الربح فيما فيه خسران

قم على النفس فاستكمل فضائلها

فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وإن أهتم بغذاء الروح وأهمل غذاء الجسد خالف بذلك الفطرة ، ومات الجسد الذي يحمل الروح فتموت الروح ، وقد ألقى بنفسه إلى التهلكة .

وإن وازن بين غذاء الجسم والروح صار إنساناً مثاليًا وسعد في دنياه ، وفرح بقاء ربه في أخراه .

وهدف العبادة في الإسلام تحقيق مثالية الإنسان .

كرامات الأولياء :

قال الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يونس / ٦٢ – ٦٤ .

ومن هذه البشرى ما ورد :

- قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها عند موته : إنما هما أخواك وأختاك ، وكانت زوجته حاملاً فولدت بنتًا فكان قد عرف قبل الولادة أنها بنت .
- وقال عمر ضي الله عنه في أثناء خطبته : يا سارية الجبل ، إذ انكشف له أن العدو قد أشرف عليه ، فحذره لمعرفته ذلك ، ثم بلوغ صوته إليه من الكرامات العظيمة .

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دخلت على عثمان رضي الله عنه وكنت قد لقيتني امرأة في طريقي ، فنظرت إليها شررًا ، وتأملت محاسنها – فقال عثمان رضي الله عنه لما دخلت : يدخل عليّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه !! أما علمت أن زنا العين النظر ؟ لتتوبنَّ أو لأعذرنَّك ، فقلت : أوحي بعد النبي ؟ فقال : لا ، ولكن بصيرة وبرهان ، وفراسة صادقة .
- وعن أبي سعيد الخراز قال : دخلت المسجد الحرام ، فرأيت فقيرًا عليه خرقتان ، فقلت في نفسي :

هذا وأشباهه كَلٌّ على الناس ، فناداني وقال :

" والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه " فاستغفرت الله في سري فناداني وقال : ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ ثم غاب عني ولم أره .

وباب الكرامات باب واسع مشاهد بالتجارب خارج عن الحصر ذكر لي أحد الصالحين الحاج / بد الكريم السقا ، وكان رجلاً فلاحًا وقد أكرمه الله بعلاج الكسور (يرحمه الله) قال : كنت في الحقل بعيدًا عن البلدة وبعد صلاة الضُحى وإطعام البهائم وأنا بين النائم واليقظان جاءني رجل يلبس الثياب البيضاء وقال لي العمدة علي شعبان توفى وذكره بخير ثم غاب عني ولم أره ثم علمت النبأ الحقيقي للوفاة حين قدم أحد الإخوان من البلدة ، وله مع عائلة العمدة كرامات منها أنه رأى العمدة في المنام يقول له أبلغ أبنائي بإصلاح دورة المياه ، وكان ذلك واقعًا بالفعل ، ولم يكن الحاج / عبد الكريم عنده علم بدورة المياه .

موقفنا من التصوف والطرق الصوفية :

إن التصوف والطرق الصوفية أمر قديم ، وقد كثر الكلام حوله تارة بالتأييد وتارة بالتجريح ، ولكن المقياس الصحيح الذي يجب أن تقاس به الأفكار والسلوك الذي توزن به هذه الطرق وكل التشكيلات المنسوبة إلى الدين هو قوله تعالى :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يونس / ٦٢ – ٦٤ .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سورة الأنعام / ١٥٣ .

وقول النبي – صلى الله عليه وسلم – :" من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد " متفق عليه .

فإن كانت الطرق الصوفية ملتزمة للدين عقيدة وشريعة فهى محمودة وينبغي تشجيعها ، وإن انحرفت فهى مذمومة ويجب تقويمها ، والتقويم يكون على المنهج الذي رسمه الله لنبيه – صلى الله عليه وسلم – بقوله :﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ سورة النحل / ١٢٥ .

والمهم أن تتريث في الحكم على أي شئ وأن توازن بين الإيجابيات والسلبيات فكرًا وسلوكًا ، وأن نحاول الإصلاح بالحكمة دون العمل على الهدم من أجل الهدم ، مع الحذر من خطورة الفراغ الروحي ، والإسراع إلى ملئه قبل أن تغزوه الواردات الأخرى بأساليبها القوية ومغرياتها السخية التي تحاول غسل

العقول والقلوب ، وإقصاء القيادات الدينية عن الساحة ليخلو لها الجو فتعبث كما تريد : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) سورة (ق) من الآية (٣٧).